CAIRO INSTITUTE
FOR HUMAN RIGHTS STUDIES
Institut du Caire pour les études des droits de l'homme
مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان

٧ آذار/مارس ٢٠١٦

مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان

لمن يشنون حربًا لمنع شروق الشمس

كلمة الافتتاح في احتفال منح جائزة هومو هوميني لحقوق الإنسان

والمهرجان الدولي الـ٢١ لأفلام حقوق الإنسان الوثائقية "عالم واحد" لعام ٢٠١٦ (براغ، التشيك)

شكرا لكم سيداتي وسادتي.

اسمحوا لي أولًا أن أتوجه بالشكر إلى منظمة "العناية بالمحتاجين" لتنظيمها هذا الاحتفال. وأود أن أتوجه بالشكر أيضًا لكل من ساهموا في تنظيم مهرجان "عالم واحد" السينمائي، الذي يوجه اهتمامًا تشتد الحاجة إليه لمعاناة البشر وسعيهم لحياة أفضل في جميع أنحاء العالم.

إنني ممتن حقًا لوجودي معكم في براغ، والانضمام إليكم في تكريم هذه المجموعة من السيدات والسادة الشجعان والمتميزين من كوبا. كما يشرفني للغاية أن أقف في المكان الذي وقف فيه العظيم فاسلاف هافيل عدة مرات لتقديم هذه الجائزة للمدافعين عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

الفائزون بجائزة هذا العام هم جزء من مجموعة أكبر من المعارضين، تضم صحفيين ونشطاء من أجل حقوق الإنسان والديمقراطية، ممن سُجنوا بذريعة تلقي تمويلًا أجنبيًا؛ وهي الحجة التي يستخدمها الطغاة في جميع أنحاء العالم. من المثير للسخرية حقًا، أنه في الوقت الذي أتكلم فيه هنا هذه الليلة، تكون الحكومة المصرية –بدلا من أن تكون مهمومة بشن حملة لمكافحة الإرهاب ضد تنظيم الدولة الإسلامية المعروف باسم "داعش" لاستعادة السيطرة على منطقة شمال سيناء– تتهيأ لشن حملة واسعة ضد المدافعين عن حقوق الإنسان والمنظمات غير الحكومية بحجة التمويل الأجنبي أيضًا.

قبل خمس سنوات، خرجت شعوب البلدان العربية إلى الشوارع للمطالبة بالديمقراطية والحرية والكرامة. غير أنه سيكون من الخطأ افتراض أن تلك المطالب كانت وحدها الأسباب الأساسية للاحتجاجات، بالضبط كما سيكون من الخطأ القول بأن "الثورة المخملية" أو "ربيع براغ" في تشيكوسلوفاكيا كانت مجرد تمرد ضد الحكم الشيوعي.

الربيع العربي يرمز لما هو أكثر من مجرد الصراع بين العسكريين والليبراليين واليساريين والإسلاميين. الثورة المخملية والربيع العربي، على حد سواء، كانا في جوهرهما ثورة جيل جديد انبثقت من إحباطه من الوضع القائم؛ جيل يطمح للحاق بركب بقية العالم، وإعمال القيم العالمية، وممارسة الحياة والعيش بالضبط كما يفعل بقية البشر في العالم. ولعل أفضل ما يوضح ذلك هو ذلك المواطن العادي الذي تحدث أمام كاميرات التلفزيون أثناء الربيع العربي، وهتف عن حق باللغة العامية المصرية "إحنا عايزين نتمتع بحقوقهم".

ومثلما كان جيل جديد من مواطني تشيكوسلوفاكيا يهتف "أيدينا فارغة!" في عام ١٩٨٩، راح الجيل الجديد في المنطقة العربية يهتف "سلمية .. سلمية!" في عام ٢٠١١. فكل منهما على حد سواء كانت حركة سلمية تهدف إلى الحلول محل نظام قديم عفا عليه الزمن، وبات عاجزًا عن تحقيق أنماط الحياة التي تتطلع إليها تلك الأجيال الجديدة وتستحقها. غير أن رد قوى الثورة المضادة، والجيش، والمتطرفين الإسلاميين، والجماعات الإرهابية، وقوات الأمن، كان شديد الوحشية.

وبلغ النزوع الشيطاني بقوى الثورة المضادة أن تعمد إلى تدبير تفشي الفوضى والصراعات المسلحة. في سوريا، على سبيل المثال، أطلق نظام بشار الأسد سراح جهاديين مدانين من السجن في عام ٢٠١١، بما يحرف الانتفاضة السلمية إلي طريق العنف و التطرف. الأمر الذي أدي إلى نشأة داعش ثم تمددها في سوريا و العراق. لقد كان استخدام نظام الأسد للأسلحة الكيماوية والبراميل المتفجرة ضد المدنيين، هو السبب الرئيسي للموجات الكبيرة من اللاجئين وحصيلة القتلى الهائلة. لقد تم إجبار اللاجئين السوريين علي ترك منازلهم والبحث في أوروبا عن ملجأ لهم وليس للبقاء للأبد؛ إنهم يتطلعون للعودة لمنازلهم غدًا. في هذا السياق أظن أن أوروبا لها خيارين فقط، إما أن تساعد أغلبية الشعب السوري على اختيار حكومته بأنفسهم والعودة بذلك إلى منازلهم، أو مساعدة الأسد علي طرد مزيد من السوريين إلى أوروبا.

لقد اعتاد التاريخ، سيداتي وسادتي، أن يكرر نفسه. فمصير العقليات الحاكمة الشائخة –التي فقدت صلتها بالواقع، وبالحس السليم، وأصبحت ترفض حتى السماح بإصلاحات متواضعة، وبما تتيحه أساليب الحياة الحديثة– سيظل دائمًا المصير نفسه.

عبارة مثل "لا تستمعوا لأحد غيري" ما كان ينبغي أن تصدر إلا عن زعيم قبلي من العصر الحجري، عندما كان الناس يعيشون في عزلة تامة، ولا يملكون أيًا من وسائل الاتصال. من المفارقات أن قائل هذه العبارة هو حاكم بارز من حكام المنطقة العربية، قالها في الشهر الماضي، ونحن في ذروة ثورة الاتصال في العالم. إنه يفترض أن هذا النداء المستحيل قد يساعد على "استقرار" حكومته وبلده. ولكن حقيقة الأمر أن هذا "الاستقرار" المزعوم لا ينتج إلا المزيد من الفقر، والهجرة غير الشرعية، واللاجئين، والإرهاب. فالاستقرار في هذا السياق هو محض سراب. وما يقدمه هو، في أفضل الأحوال، وصفة لاستقرار قصير الأجل يتخفى في زي استقرار دائم وحقيقي.

قبل عامين تقريبًا، وبعد شهرين من توليه منصبه، وجهت إلى الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي خطابًا مفتوحًا. وكانت الرسالة تقول: "أنتم تحذرون من خطورة انزلاق مصر إلى النمط العراقي أو السوري أو الليبي"، غير أن "تعرض هذه البلدان لمخاطر التفكك، وسهولة اختراق الجماعات الإرهابية لها لم يكن ممكنًا لولا سيادة حكم الفرد وتأليهه".

طالما ظل الرئيس السيسي يشن حربه ضد الأجيال الشابة، فإن الشيء الوحيد الذي قد أوافقه عليه، هو افتراضه أن الرموز الشبابية العلمانية –الذين هم الآن إما في السجن أو في المنفى–يشكلون تهديدًا لحكمه أكبر من أي منظمة إرهابية. ولكن كما علمنا التاريخ وعلمتنا الحياة مرارًا، لا يمكن منع الشمس من الشروق. فالمخرج الوحيد أمامه هو منع النساء من الولادة وقطع الطريق علي ميلاد الأجيال الجديدة. كل تلك المحاولات مآلها الفشل في نهاية المطاف. السؤال ليس حول من سيفوز بهذا الصراع، بل حول كم سيستغرق الأمر حتى تنتصر الأجيال الجديدة وينتصر المستقبل، وبأي ثمن على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية؟

في العام الماضي، مُنحت جائزة نوبل لرباعية المجتمع المدني التونسي. لو كنت عضوًا في لجنة جائزة نوبل، لضممت إليهم جهة خامسة، أسهمت إسهامًا حاسمًا في جعل "الاستثناء التونسي" ممكنًا. هذه الجهة الخامسة هي قيادة الجيش التونسي، التي امتنعت عن التدخل في السياسة، وبقيت حارسًا يتمتع بالثقة يحرس من بعيد العملية السياسية بعد الثورة؛ فكانت مثالًا يجب أن يدرسه القادة العسكريون في البلدان العربية بإمعان.

لقد حان الوقت لبدء حوار طال انتظاره وتشتد إليه الحاجة في العالم العربي، بين شخصيات تتحلى بسعة الأفق من القيادات العسكرية والعلمانيين والإسلاميين. إنني على ثقة من أنه عندما وحيثما ينطلق مثل هذا الحوار، لن يدخر المجتمع الدولي وسعًا لمنحه الدعم المعنوي اللازم الذي يستحقه ويحتاجه.

أشكركم.